مكانة الصحة النفسية والعلاج النفسي في علم المدن الإسلامية

علي زيعور

مدخل
نحو علم للمُدُن الاسلامية

لعلّ إعادة قراءة الانتاج الفكري المعاصر، في مجال دراسة المدينة التاريخية الاسلامية، تحتم نفي ذلك الإنتاج وتجاوزه، أو نقده واستيعابه. بذلك الرفض والتمثّل يتوجه الفكر العربي الحالي صوب إقامة **علم خاص بالمدينة**[1]، بالحقل الجغرافي الاجتماعي **للثقافة العربية** من حيث هي أنماط في السلوك والوعي؛ **وللحضارة** في الاسلام من حيث هي تجسدات مادية وإنجازات.

سيكون **غرض** ذلك العلم، أي الدراسةِ ـ المُمنهَجةِ ـ المنظَّمة، أكثر من النظر الشائع الذي يدرس بنية المدينة أو تكوّنها وتخطيطها، مقوماتها من طرق ومرافق؛ والذي ينصبّ، بدرجةٍ أخفّ، على ما هو نشاط اجتماعي وعلائقية. فذلك النظر، الذي يوصف اليوم بأنه كان سائداً، قد لا يلتقط خصائص المدينة في الاسلام من حيث هي **وحدةٌ كُلّية**، وشخصيةٌ ذات سمات (دينامية وطبيعية) حافظت على استمرارية تاريخية، وتشابهٍ في الأسلوب العام

---

(١) علم المُدن: المَدُنيات، المدينيات؛ وهو ردٌّ على علم **المُدُن الفاضلة** الذي غذته الفلسفة العربية الاسلامية منذ إخوان الصفا والفارابي حتى أوائل القرن السادس عشر مع الدوّاني (ت ١٥٠٢).

والايـديولـوجيا تجـاه البيئة وتحيـين القيم، ميزت التـاريخ الاسـلامي حتى هـذا القرن.

إلا أن **منـاهج** علم المُـدُن ستكون راغبـةً في أن تتمثل المنهجيـة «السائـدة» المتّصفة بالسرد، والوصف من الخارج، ورصْفِ المعلومات الجغرافيـة على نحـوٍ خَطّي ميكانيكي. وذلك التمثل هو نقدي؛ ومن ثمّ يطمح للجـديد والتجـاوز، أي لأن نتعلم منه ونتخطاه: فقـد تنجح تلك المنهجيـة في تقديم معلومـات؛ أو هي تكدّس، وتعطي صورة داكنةً غير دينامية. أما أبرز نقائصهـا فتبقى ملخَّصةً في كونها **تقطيعيـة**: تفتش عن عنصر؛ ثم تتحرى، **بحمـاسٍ ومنطق أهـوائي**، جذوراً مصطنعـة، أو إسقاطيـة، أو افتراضيـة لذلـك العنصر. إن **المحتسب**، على سبيل العيِّنة، مؤسسةٌ «ذات نفع عام» قدمت للمدينـة الاسلاميـة، ومن ثمّ للفكر والنظر، نـظاماً اجتـماعياً إداريـاً (بل وأيـديولـوجياً) مميِّـزاً، بارزاً ومميَّـزاً. قراءته، في المنطق السائد المتأثر جداً بما هو مرغوبٌ معـروف في البلاد الشـديدة الصناعة، تقدِّمه استمـراراً لصاحب (نـاموس) السـاحة (الأغـورا) اليونـاني[٢]. كذلك، وفي عيّنة أخرى، فإن **مؤسسة الحمّامات**، من حيث أننا هنا حيـال نظام اجتماعي ثقافي شديد الصلة بالشخصية وبالسلوك في الإسلام، تغـدو في القراءة المنجرحة الجارحة نسخةً عن **الظاهرة الرومانية** للحمّام. وكأنَّ العقـول أجدبت بـاستثناء اليـونان، ثم الـرومان، ثم بعض أوروبـا (الشـمالية)؛ أو كـأن المـدن الغربية وحدها **استطاعت بلوغ مستوى «المدينة الحضارية»** (سيتي / City)، في حين بقي ما عداها عند درجة بَلْدَة (تاْون/ Town). لن نتلبث عند هذه **الرؤية الأنا وحدية، أو المِرْقمركزية**، الأوروبية. ولن ننجرّ إلى العقلية السجـالية التي تنـاقش، وتُلاحي. فـالدوغـمائية (العقيـدانية) التي سجنـونا فيهـا، سجنـوا هم أنفسهم فيها؛ وطبقوا على المدينة الاسلامية ما قالوه في خصائص مسبقة جـاهزة ثـابتة للعقـل العربي الاسـلامي، أو ما قـالوه في الفلسفـة والفن والفقهيـات في القطاع الاسلامي من حضـارة الإنسان وذمتـه. لقد قـال بعض المستشرقين، أو

---

(٢) Agoranomos.

من إلى ذلك، إنّ **المدينة الاسلامية تكديسٌ لعناصر وأجزاء**، وأُجموعةٌ من التفاصيل والأحياء، وفاقدةٌ للوحدة الكلّية والهيكل العام المترابط التوليفي[٣]. وادّعوا أنها لم تستطع أن ترقى إلى مستوى توليد، وإنماء، النُّظُم الادارية والسياسية والقضائية الأساسية في تعريف بنية المدينة وكينونتها. . .

إن المنهجية التي تُنتج، في علم المُدن، منفتحةٌ على علوم شتى مترابطة؛ وتأخذ في بنية متكاملةٍ ما هو أرضي وروحاني، نسبي ومطلق، أيديولوجي وجغرافي، في المدينة الاسلامية. ومن النافع أن ينصبّ النظر أيضاً على المعيوش، والنفسي، والرمزي؛ بل وعلى ما لم نفكّر فيه بعد، وما سكتنا عنه أو طمرناه وطردناه، وما توفره لنا علوم ما تزال حتى اللحظة في طور التكوّن والتفعيل (الحِداجة، الإصاخة، البونية، السيميائية. . .).

لا يقتصر هدف «**علم المُدن الاسلامية**» إلى دراسةٍ للتاريخ؛ إن من حيث هو وقائع وأحداث وأفكار، أم من حيث هو نظريات وأفكار حول تلك الوقائع عينها أو تلك الأفكار. فلعلّ القصد الآخر مستقبلي، استيعابي وتثميري؛ أي هو قصدٌ يوظّف الوعي والعقل في سبيل التغيير، ومن **أجل المستقبليات**. لقد كانت المدينة الاسلامية **أُمّ العلم العربي الاسلامي**؛ وموئل الفكر العام والفلسفة وشتى الانجازات التي قدّمها التاريخ العربي الاسلامي للانسان في العالم، وللتجربة الحضارية أو للفكر. كما كانت تلك المدينة، كما سنرى بعْدُ أدناه أكبر عاملٍ في ضبط السلوك، ونقل المهارات، ومراقبة الفعل السياسي، وتنظيم التعاملية، وتعضية الطبيعة مع التحكّم بالوجود والمصير أو بالحال والمآل. . . تدبّرُ هذا التاريخ للمدينة مَتاحةٌ (فرصةٌ) للتنظير للمستقبل، أو لتطوير الحقل والشخصية، بحيث نبني العقلانية المنتجة، والعلوم النابعة من داخلنا، والمستجيبة لرغائبنا، والمحقّقة للتكييفانية العربية مع الدار العالمية للتكنولوجيا والثورات العلمية، والمواكبات الفكرية لكل ذلك.

---

(٣) للمثال، را: أحكام منجرحة لـ : هامُند، غَرَبَرْ، شْقَرْن، أشتور؛ را:
Hourani, stern, *The Islamic City* (Colloquium), Pensylvania Press, 1970.

لابد للمنهجية المنفتحة على شتى علوم الإنسان والمجتمع والنفس، علوم التاريخ والعمران والحضارة، من أن تقودنا إلى **صياغة قوانين** حكمت نشأة المدينة في الاسلام، وتطوّر بنيتها ووظيفتها، وعوامل عجزها وشيخوختها، وأسباب قصورها عن توليد الثورة الصناعية الأولى، وعن الصّدّ أو الكفّ والنقص في التأدية والاستيعاب، في الكفاءة والانتاج، حيال **التكنولوجيا الراهنة**، ورفع مستويات العيش، بل ومستوى الانسانية في الانسان: **كلّ الانسان، وكلّ إنسان**...

يتعلم الفكر العربي، في مضمار هذا العلم المستقل، من التاريخ، أي من الفلسفة العربية الاسلامية التي أولت لقطاع «المدينة الفاصلة» مكانةً ومكاناً. فجاء ذلك القطاع تنظيرياً، مُنْبَتَّ الجذور، أو شبه معدوم العلاقة مع شروطه التاريخية وبنيته المادية، مثالياً وشديد الانفلات من المباشرية وحراثة الفعل السياسي العربي الاسلامي. أما علم المدن، بالمعنى الراهن، فمستقبليٌّ - كما سلف. ليس هو حكمة؛ ولا هو نظرٌ في المُدن الفاسقة، أو الجاهلة، أو الناقصة... فليس منهج الفارابي هو المُحيِّن، المفَعِّل؛ بل المنهج العقلاني المتكامل بجدليةٍ، وذهابيابيةٍ وتناضُحٍ، مع المناهج التجريبية.

القسم الأول
المخيال واللاوعي في شخصية المدينة العربية الاسلامية

١ - التجربة النمطية (الأصلية، الينبوعية) للمدينة في الاسلام، الصورة الهاجعة المتحكّمة للمدينة:

قد تعتبر المدينةُ المنوَّرة «**النمط الأصلي**» الذي على غراره، وتماهياً به، ستتطور وتُنتَج، أو تُفهم وتُشرح، المدينةُ في الاسلام. سيسعى المسلم، عبر التاريخ وفي التفاعل مع المحيط والطبيعة، كما في المسعى لإشباع حاجات الاحتماء النفسي الاجتماعي والتوكيد الذاتي **والاطمئنان على الذات والنحن**، إلى أن يكرِّر الفعل الأول، **والتجربة النمطأصلية**. ستبقى المدينة المنوَّرة «**البطل**»، وصورة «الأب الحامي»، والنبع، والمثال اللاواعي الذي يحكم ويقود الرؤية في

التجربة العربية الاسلامية داخل سيرورة الانسان الحضارية. كالمسجد، على سبيل العيّنة، ستبقى المنوَّرة، داخل المدينة في الاسلام، مدخلاً للمعرفة والاستكشاف؛ وكذلك هو الحكم أيضاً بصدد رموزٍ أخرى، وعلاماتٍ معيَّنة أسست سيميائيةً (سميولوجيا، علم الاشارات) خاصة لمدننا التاريخية بخصوصياتها وببعدها العالمي.

٢ ـ المسجد نواةٌ ممثِّلة للمدينة، الخليةُ التي تختصر النسيج، المسجد «النَّمطأصلي» في اللاوعي والوعي، المِخيال الاجتماعي:

الجامع (أو المسجد، عموماً) هو، في منظورٍ مفترض، مُلخِّص للمدينة. إنه العيِّنة التي تُمثِّل الكلّ، والنقطةُ التي تكثِّف تكوين الدم كله أو ماء البحر، والمستحضَرُ الذي يرمز للنسيج برمته. إذا جاز استعمال ظرفي لهذا الاختزال، الذي تمليه ضرورةٌ منهجية، فإنّ دراسة المدينة الاسلامية تغدو نافعة، وربما صائبة، بمقدار مانحلّل النقطة التي هي، هنا، المسجد؛ وبمقدار ما نُبقي حياً في الوعي وحدة العنصر والبنية، وتفاعل الجزء والشكل العام، وتكامل الصورة وإهابها (الخلفية، المهاد، القرائنية).

أتركيب الجامع هو هو تركيب المدينة؟ إنّ النظام المعرفي، والمنطق الضمني، والبنية المطمورة، واللاوعي الثقافي، في المدينة وفي الجامع، **واحد، وقانون**:

تنعكس وظائفه على شاشتها؛ ونقرأ رسالته للانسان، وفي التكيّف النفسي **الاجتماعي**، ضمن رسالتها أو وظائفها ونشاطاتها. وبذلك تسهل معرفته عبر معرفتنا بها؛ فهما يتبادلان التعريف، والرموز، والايديولوجيا المتفاعلة مع الجغرافي والبيئوي والعلائقي. هما، المسجد والمدينة، يؤخذان معاً؛ متلاصقان ومتواضحان... وما هو المسجد النبع؟ ما هي التجربة الأولى، النَّمطأصلية، للمساجد؟ إنّ مسجد الرسول، في المنورة، هو الحامي، والحاني، والمؤسِّس، و«الذكرى» المتحكمة، والطفولة التي تتكرر وتعود باستمرار لتقود وتوجِّه.

٣ ـ البيت أو العيِّنة المكثِّفة للمدينة، الصورة اللاواعية الآثارية (النمطية) للمسكن الاسلامي:

العامل الثالث، بعد الصورة اللاواعية للمدينة المنوَّرة وللمسجد، في اللاوعي الثقافي الاجتماعي العربي الاسلامي، هو البيت الأول (الكعبة)؛ والمسكن المنزلي، النّمطأصلي أو الغراري، القاعدي، الذي عرفته الجزيرة العربية. فكلُّ قراءةٍ لتجربتنا في المدن تبقى ناقصة إن لم نضع أمام الوعي تلك الأسكيمات (الخُطاطات) اللاواعية الهاجعة. **واستكشاف اللاوعي الثقافي العربي الاسلامي طريقة، ومدخل حتمي، للمعرفة الكاملة**؛ ومن ثمَّ للتغيير أو للاغتناء والنقد والاستيعاب.

يُلفظ الحكم عينه على المساعي الدراسية المنهجية لاستعمال الانسان لجسده، وتعضيته لحركاته، **واستعماله لعينيه (الحِداجة)، ولأذُنه أو سَمعه (الإصاخة)، وليديْه (الأيْدَية)**...

وتحتم المنهجية التي تنطلق من الرمزي والنفساني والتجارب الأولى، أي من تقدير الأهمية للاواعي الثقافي الاجتماعي، التدبُّر عينه، المذكور أعلاه، للنظر في **اللذة واستهلاك الجسد، وقضايا الجنس، والخصوبة، والتجدد، والرغبة في الخلود**...

٤ ـ الاحتفالات النمطية الينبوعية المتحكِّمة في أيديولوجيا المدينة الاسلامية وسلوكها:

المسجد، في المدينة الاسلامية، مذكِّرٌ بالله، وبيته، وأهله. فالمسجد يكرِّر الكعبة، ومسجد الرسول في المدينة. المسجد حضورٌ رمزي للكعبة في النفوس والوقت والمكان: يجسِّدها، يشير إليها، يستدعيها. وبذلك فالمسجد في قلب المدينة كما الكعبةُ في مركز العالم وقلبه؛ ودوره كدورها، وليس فقط موقعه كموقعها. والمؤمن يكرر في المسجد الأفعال الاولى، والتجربة النمطية الينبوعية للشعائر الاسلامية ونظرها في خلق الكون، ومكانة الانسان أو غايته.

يجمعنا الجامع بالآخرين، ويصلنا بالله. تلك هي أكبر مقولة أسست

الاسلام، وحكمته، ولخصته. نتصل بالآخرين انتهاضاً من فكرة الألوهية؛ ومن هنا أيضاً ينبع **الاجتماع، أو المدينة**، في الاسلام. فالمسجد مكان، ومطهر؛ وهو المَتاحةُ التي تصقل الروابط الاجتماعية: يرفعها إلى المستوى الروحي. وتكون رَوْحَنة الصلاتِ الاجتماعية إسماءً لها؛ وإلقاءً لها في **مُشتركية الهدف والفكرة، في المشاركة الروحية والذوبان في علاقة موحَّدة موحِّدة**. وهنا أسمى علاقة بيْفردية، **وارتباط اندماجي، وصهرٌ في المتعالي**. ولعلّ العقل لا يجد قيمة، يحاكم بها الفعل، أسمى من تلك الدرجة الأخلاقية.

٥ ـ الخصم الينبوعي النمطي للمسلم، معنى كلمة جاهلية:

الجاهلية هي، في فرضيةٍ تستلزم الكثير من التدقيق أو التبصُّر والإبانة، الرقص واللهو. إنها عبادةُ اللذة، أو اللات؛ والتعبّد بواسطة حلقات الرقص الجماعي، والتصفير أو التزمير والصراخ... **الجاهلية دينٌ** نعرف عنه اليوم، لأسباب تاريخية، ما لا يكفي. إلّا أنّ فرضيتنا هنا تنفر من تفسيراتٍ غير تاريخية، أو أهوائيةٍ محدودة، أو ما إلى ذلك من تفسير بالاقتصاد، أو بعاملٍ واحد آحادي حاسم. كان لذلك الدين شعائره التضحوية، وأبطاله، وتصوراته عن الكون والانسان؛ وفي كل ذلك يلعب الرقص، واحتفالات الذبح، والزعيق والصفير، دوراً أول في دمج المتعبّد بغيره، وبجماعته، وبالطبيعة، وفي التحضير لسلوكات كالغزو، والاستسقاء، وطرد الخوف، بل ولنشاطاتٍ سحرية أصطورية[٤] في الحج، والتجدد، والخصوبة، والاحتماء، والنذر، وأنظمةٍ أخرى كثيرة (را: نظام الحمس، التضحويات أو احتفالات مرتبطة بالكعبة من حيث هي بيت الله أو ملكه وقربانه وحَمَلُه)...

٦ ـ المعنى الظلّي لكلمة مسلم، العنصر الأول في المدينة التضحوية (الرباط):

المسلم هو، في هذه الفرضية الكبرى الشاملة، المضحي بنفسه أو من يقدِّمها كي تكون ملكاً لله، وقرباناً، ومشاعاً، وغير مملوكةٍ لأحد سوى الله أو

(٤) أُصْطورة = ميثة (mythe)؛ أسطورة لكن بالمعاني العديدة الحديثة للكلمة.

الكعبة أو أهلها. الاسلام يجعل من المؤمن ضحية، وفدية لله، وحمل الله، وهدْياً. انه مبايعة على قتل الذات وتسليمها لمالكها، لله؛ بذلك فالمسلم هو اللاعملوك، والمقلَّد، والمسوَّم... **إنه المُسلِّم نفسه لربّه؛ المتخلي عن ذاته، أو الذي باعها لله. وليس كالرُّبُط، مدن الثغور، مفسِّراً وملخِّصاً لهذا المعنى لكلمة مسلم.**

٧ ـ «السلام عليكم»، رمز نَبْعي للمدينة، نحو تحليل اللاوعي والمخيال للمدينة:

«السلام عليكم» رمز لفظي للمدينة الاسلامية؛ هو شعار، وشعيرة، **وطقس ديني تعبّدي مقنَّع هاجع** وراء الاستعمال الاجتماعي، والتعاملية اليومية. وهو صلاة، أو **فعل ديني**، يُغذي التماسك في المدينة؛ ويؤسِّس **النظرية والممارسة في الفعل العلائقي الاسلامي.**

ذلك خطاب (مقال، نظرٌ، رسالة) في الاقرار لك بالاسلام؛ **وبأنك مرتبط بالله، مسوَّمٌ، مقلَّدٌ، مملوك لله، وحَمَلٌ له، وقربانٌ له.** وبذلك فإن ذلك الفعل التواصلي تعبيرٌ عن أيديولوجية عميقة مطوية مطمورة؛ وكاشفٌ عن رغبة منك بالإقرار له بأنه، هو أيضاً، داخلٌ في الشبكة عينها، والتصورات عينها، حول الذات وارتباطها المطلق اللامقيّد الكامل بالالوهية. إنه خطابٌ يعزز في القائل، والسامع، في المرسِل والمرسَل إليه، في المُنتج والمستهلك أو الفاهم، **رسالة خلاصتها التسليم لله** على غرار ما يجري بحق الضحية المشاعة، المهداة لله، أو لأهله أو لبيته (الكعبة). إنه خطاب في التطهّر؛ وتزكية للنفس أو التضحية بها من أجل الأسمى، المتعالي، الخالد.

٨ ـ ما هو تحتلفظي، رموز المدينة الاسلامية (الهلال، النجمة...)، نحو سيميائية للمدن في السياسيات (علم السياسة) العربية الاسلامية:

ويهتم علم المُدن بالدراسة السيميائية؛ وليس فقط بالرِّمازة (علم الرمز، الرَّمزيات). **فنظام العلامات** المتحكِّم في المدينة، أو **نظام الرموز** الذي يُلخصها ويكثِّفها، يستلزمان النظر المنهجي، والتحليل النقدي. ولعل ذلك لا يقل

أهمية، ولا مكانةً، عن الانعطاف الحاد في الفكر الفلسفي العربي الذي ينتقد ميدان المُدُن الفاضلة ويتوجه نحو **الزرع في الأرض الخصبة، في الحقل النفسي الاجتماعي، وفي الواقع التاريخي والظواهر**.

تنفعنا جداً، في ذلك المضمار، المعرفةُ المنظَّمة **بالتواصل التحتلفظي**، وبالتعبير غير اللغوي. أشرنا أعلاه إلى **الحِداجة والإصاخة**، للمثال: لقد قيَّدت المدينة في الاسلام على العين أو البصر، على تلاقي العيون، فأقامت هنا آدابية لعين المسلم وأُذُنه. يتضح ذلك، في هذه الإلماحة، عبر المكانة المعطاة للعميان في النشاط التعبدي، وللمؤذّن، ولتسوير البيت، ولانعدام الشرفة المنزلية، ولوضعية المرأة... بذلك تأسست التربية على الأذن، أكثر مما تقوم على العين؛ وتنشّط الفقه المرتبط بالبيت، والحسبة، و«**زنى النظر**».

٩ ـ الأيدية، البونية، الإصاخة، الحَرَكْياء والإشارية:

بتقييدنا، في ظروف وضمن آدابية، للحداجة، نمَّينا وعززنا **دور الأُذن**، بل وحتى الشمّ. أودّ أيضاً أن أضع أمام وعينا ارتباط التعبير غير اللفظي، كما في استعمالاتنا لحركاتنا وأيدينا (الأيدية، الميمياء)، بالسلوك اليومي، وتطوير اللغة، والنظر في الوجود، والتعاملية... لعل ملاحظةً دقيقة لجلسة أصدقاء، أو لمنادمة، أو عند التحية، واللقاء عموماً، تكشف عن علاقاتنا من حيث هي حميمة، أو عدائية، سلبية أو فاترة. إنّ **البونية، القُربُعدية**، الخاصة بالمسلم، وليس فقط بالعربي، متغاذية مع سلوكاتنا التعبدية. **وأساسية في بناء البيت، وفي بنية المدينة**، وفي الشوارع والطرقات، وفي الأسواق...

هل يكشف الفن الاسلامي، في المنمنمات والتوريق وما إلى ذلك، عن القُرْبُعدية؟ إن **ذلك الفنّ يقرِّب العناصر كي يجرِّدها**، ومن ثمّ كي يرفعها إلى الأسمى والعام. ألا نفعل ذلك، نقترب جداً من بعضنا بعضاً، كي نعبّر عن القربى، عن العلاقة السامية والمحبة؟

لعل كل ذلك، أو جُلّه، أساسي في معرفتنا بالمدينة، وبالشخصية، وبالتعاملية، وبالجسدي واللامتعضي والمعيوش فينا. ومن مجلوبات علم المُدن

أنه يدرس هذه القطاعات، والتعبيرات التحتلفظية، كي نُعيد تعضيتها ومن ثم كي نعي بها جيداً، ونستوعبها في الانتاج وفي التحليل، في الفهم والأداء.

القسم الثاني
وظائف المسجد في الصحة النفسية والتوكيد الذاتي

١ ـ المسجد عاملٌ يسهم في الاستقرار النفسي، وفي استعادة الصحة النفسية:

يولّد انجراح المواطن، في حقله النفسي الاجتماعي (Umwelt)، توتراً في الوعي والسلوك يقلق الشخصية، ويخلخل استقرارها. فنسعى لاستعادة الصحة النفسية، والاطمئنان، أو التكيّف والتوكيد الذاتي.

ليس في المدينة الاسلامية ما كان أقدر من المسجد على توفير بلسمة تلك الانجراحات؛ أو التخلخل في العلائقية، والعمل، وداخل الذات. فهناك، على سبيل الشاهد، صلاة الصبح التي، مع ما يصاحبها من تنشيط وحركات وتعاملية، تقوم بدور المعزِّل؛ والخافض للتوتر، والقلق، ومخاوف الليل، وأرقه وهواجسه... وهذا واضح؛ معروف. فدور الصلاة تطهيري؛ إنها تستعيد الانسان إلى حيث تدمجه بالروحي.

٢ ـ وظيفة البلسمة للانجراحات وللانغلاب أمام القواهر:

التوجه نحو المسجد، خمس مرات في اليوم، ربطٌ عضوي بما يمثله المسجد وما يرمزه إليه، وإحضارٌ للتجربة النمطية في السلوك الفردي. بذلك يتعزز ربط الفرد بالجماعة، وبالروحي، والعلائقي. ومن هنا يتغلب الانسان على اضطراباته، وهمومه الحياتية، ومشاعره **بالانجراح أمام قواهر الطبيعة واللقمة والسلطة**. فقد يعبِّر عن فرحه، فيزداد؛ ويكشف عن انفعاله وتخلخله، فتضعف حدّة الجرح. وفي كل ذلك يكون المسجد، من حيث هو المكان لتسليم الذات لله والمناسبة الاجتماعية للتشارك الروحي مع الآخرين، عامل توكيدٍ للذات، وشحذٍ للعزيمة، وتوفيرٍ للتكيّف، والصحة النفسية، والتطهّر أو التفريغ الانفعالي، والعيش لحظةً تاريخيةً في رحاب الروحاني ودعوة المتعالي.

٣ ـ توسيع الوعي الفردي، مسؤولية الفرد حيال النحن، الاستسلام للوعي الجماعي:

المشاركة في نشاط المسجد، أو الاندماج في نـدائه وسيميـائيته، مشـاركةٌ في همّ الجماعة ومسؤولية الجماعة. من هنا فإن الوعي الفردي، في الاسلام، منفتـح بـاستمرار عـلى الآخر والنحن؛ حتى أن النحن تـطغى أحيـانـاً، وتجـذب إليهـا الفرد، وتقود المسؤولية الفردية. ومن هنا أيضاً فإن المسجد هو أكبر العوامل التي حققت للشخصية الاسلامية وحدتها، واستمرارها التاريخي، وتشـابهها المكـاني، طيلة قرون. المواطن غير مغلقٍ على الأنا؛ والأنا تجـد غناهـا في الأنت. ويجتمع الأنا والأنت في كل مـترابط، في النحن الحيّ. همّي يهم الآخر؛ وهمّ المـواطنين يهمُني. الوعي الفردي منفتح: **أنا مسؤول عن الآخـر**؛ والآخر **يتحمـل واجب الانخراط والالتزام**.

٤ ـ التحرر من الهموم اليومية، ومن مشاعر التبخيس الذاتي ومشاعر القصور والصّد ونقص الكفاءة:

إن نظرية عربية تجعل من الصلاة، ورموز المسجد وإشاريته، أداةً إشفـائية في مجال العلاج النفسي، ليست بدون قيمة. إنها نظرية منغـرسة في التـطبيقي، والمعيوش أو الممارَس. فهنا عامـل تحريـر من مشاعـرنا بـالصّدّ أو بـالعجز أمـام الطبيعة، وبقصورنا الـذهني، وبفقدان الاعتبـار الذاتي... كـذلك فـإن وظيفة بعض الشعائر الدينية الأخـرى (الحج، الـوضوء، زيـارة المقابـر) لا تقتصر على ترقية السلوك الفردي، وضبط التعاملية أو تغذيـة التماسـك الاجتماعي. فـالدور العلاجي، وحتى الوقائي، لتلك الطقوس أساسي في إعادة تكيّفنا مع القواهـر؛ وفي حقلنا المادي الاجتماعي ومسعانا **نحو النضج الانفعالي**.

٥ ـ احتماء من المخاوف المرضية، مجابهة الخوف من الموت، الرد على النسبي باللجوء للمقدس والمتعالي:

نذكر من الوظائف النفسية، العلاجية والانمائية والوقائية، للمسجـد، دوره في توفير نوع من البلسمة أو التغـطية لخـوُاف (خوف مـرضي، لاسويّ، فـوبيا)

الاندثار. فالانسان القلق، أو الذي تلاحقه بقسرية هُجاسات الموت أو وسائس متعلقة بصحته (أو بصحة أعزّائه)، أو الذي يشكو من اضطرابات حول المرض وتخلخل ارتباطه بالوجود والحياة، يجد **العزاء اليومي**، ولمراتٍ عديدة في اليوم الواحد، عبر الارتباط بالمسجد داخل المدينة الاسلامية. يستعين الانسان، ينكص؛ ثم يحتمي بالزمن الديني، والمكان الغيبي، والمقدَّس.

٦ ـ تنقية العقل التواصلي، روْحنة العلاقات الاجتماعية:

لا تهمنا، الآن وهنا، الوظائف الإعلامية للمسجد داخل المدينة. وأشرنا إلى أنه يرُوْحن العلاقات داخلها. فالأهمّ، ربما، هو الدور الإدماجي للتشارك داخل ذلك **المكان المادي الأخلاقي**. فهناك يبلغ الوعي البشري الحد الأقصى من الروحانية، وقمة النقاء في العلاقات الاجتماعية، والمثل الأعلى الأخلاقي. هناك، باختصار نجد المعيار الأسمى للسلوك، ولمحاكمة الفعل البشري.

القسم الثالث
من طرائق العلاج النفسي والطب العقلي في المدينة الاسلامية

١ ـ العلاج النفسي بالموسيقى والغناء:

عرفت المدينة العربية الاسلامية العلاج النفسي (العلاجنفس) بواسطة الغناء والضرب على آلات الطرب. فنهوضاً من الثقة بدور السّماع في تليين العريكة، وتشجيع القلب، وتفريح النفس (بحسب مصطلحاتهم)، أعطوا للألحان في النفس المريضة وظيفة الدواء في الجسد السقيم. وهكذا استُعمِل النغم، والطرب والعزفُ لاشفاء الإصابة النفسية، أي لعلاج القلق، والهموم، والعوارض العُصابية. يُذكر، في هذا المجال، ابن جزلة (٤٩٣/ ١١٠٠)؛ والكندي الذي كان يدعو لاختيار اللحن بحسب ساعات النهار[٥]؛ وعليّ بن العباس المجوسي الذي نبّه إلى أنه ينبغي أن يُحتال في تسكين (الهمّ والغمّ، وما إلى ذلك) بواسطة سماع **أصناف اللحون السارة للنفس كضرب العود والطبور**

---

(٥) القفطي، ٢٤٦ ـ ٢٤٧؛ زكريا يوسف، مؤلفات الكندي الموسيقية، بغداد، ١٩٦٢.

والأنغام الشجية» . . . أما كلام إخوان الصفا[٦]، وابن سينا[٧]؛ وآخرين من الفلاسفة ومن المُقمِّشين، فكثير. كان شديد التعبير عن تأصُّل واتساع تلك الأنواع من الطرق الإشفائية، في المدينة العربية الاسلامية.

٢ ـ العلاج النفسي بالتسلية واللهو:

لعل «تقويم النفوس»، أو العلاجنفس في المصطلح المعاصر، لم يرقَ، في **منهجه العلاجي باللهوي والتَّسلوي**، إلى مستوى الممارسة أو التنظير القابل للتعميم، والشديد الرسوخ. هل أشير إلى ذلك التطبيب في البيمارستانات، وفي التيمارستانات، وفي المؤلفات الطبيعية، إشارةً تدلّ على عراقة؟ في المؤلفات!!! نعم. وبشكلٍ ملفت.

٣ ـ قطاع الطب النَّفْسَبَدنَي:

من المبذول أن نُلمع إلى التشديد الراسخ، والتقليد الثابت، الذي توصلت إليه المدينة الاسلامية في علاجها للمرض البدني انطلاقاً من إيمان واضحٍ بقدرة الوهم والاضطراب النفسي والقلق على **توليد المرض**؛ وعلى تحقيق العلاج (را: ابن سينا، الرازي؛ أورد ابن أبي أصيبعة حالات كثيرة مؤيِّدة).

٤ ـ تعزيز الصحة النفسية بالأغذية:

هنا طريقة في العلاجنفس بلغت مستوى النظام المؤسَّس، أو المعرفة المنظَّمة، والتطبيق الشائع الراسخ. فليس علي بن العباس، للمثال، أول ولا آخر من استعمل ذلك الإشفاء؛ بل والانماء أو الوقاية. لقد كانت البيمارستانات، والأطباء، وحتى على صعيد الذين يقدِّمون النصائح الطبية (بحسب ما تنبه إلى ذلك الرازي، طبيب الاسلام الأكبر **أو جالينوس** العرب) من العوام والنساء وجهّال الأطباء، تعطي للغذاء وظيفةً علاجية للعوارض

(٦) إخوان الصفا، رسائل، ج ١ ص ص ١٨٣ ـ ٢٤١.
(٧) ابن سينا، القانون، ١، ٢١١.

النفسية (المرض النفسي، العُصاب) وليس فقط في مجال التطبيب البدني.

٥ ـ العلاج النفسي بالعمل والسفر والنزهات:

أبرزت المدينةُ ضرورة العمل، وإشغال الانسان، كي يبتعد عن المخاوف الوسواسية والهواجس. فالفراغ والخلوة عاملان يوقعان في ذلك. ولعلّ علاج **الماليخوليا**، على نحوٍ خاص، كان المناسبة أو المرض الذي دفع بالمؤسسات العلاجية لأن تجد الخلاص منه بواسطة «**الأشغال الاضطرارية**...، والأسفار، والنقلة... وينبغي أن يعالج ذلك الداء بالأشغال، فإن لم يتهيأ فبالصيد والشطرنج، وشرب الشراب[٨]... مما يجعل للنفس شغلاً عن الأفكار العميقة...»[٩].

٦ ـ العلاج بواسطة شمّ الروائح الطيبة، ورؤية الألوان البهيجة والرقص:

من المعروف أن المدينة الاسلامية عرفت ومارست، نظّرت وطبّقت، أساليب أخرى في الإشفاء بواسطة أساليب نفسية أخرى، متعددة لكن يصعب علينا أن نجعلها بلغت مستوى النُّظم، والمنهج العقلاني أو **التجريبي**. فقد تجد التنبيه إلى إمكان وشروط الشفاء بواسطة المشي الرقيق (الخفيف، البطيء)، وبمشاهدة **الرقص**، وبمشاهدة الروايات تُمثل أمامهم، والقصص تحكى لهم.

إلا أن العلاج بواسطة **شم الروائح الطيبة**، والتفسح في الهواء الطلق، واللعب، وربما المباريات في الغناء، كانت طرائق لا جدال فيها[١٠]. وتنبه كثيرون لتأثير الألوان البهيجة في النفوس الحزينة.

٧ ـ صياغة مبادىء للطبيب والمريض، آدابية المرض والطب:

في هذا المجال، النفسي والجسدي، طوّرت المدينة مجموعةً من الأحكام

---

(٨) الرازي، الحاوي، ج ١، ص ٦٨.

(٩) الشراب: يذكره الفارابي (وابن سينا، والطوسي...) كمنشط وضروري. لكن أيّ شراب؟

(١٠) لا يجوز أن نقفز من هذه إلى الزعم، على غرار التفسير المتعالم واللاتاريخي، بأنهم سبقوا إلى العلاجنفس بواسطة السيكودراما، والسوسيودراما.

لسلوك الطبيب المثالي، ولإرشاد الباحث عن العلاج الى الطُّرق الواجب اتباعها. هنا قد يقع بعض المتحمسين، الذين يُسقطون ثمرات المدينة الراهنة على مُدُن الماضي، في مبالغاتٍ مفادها أن الرازي، للمثال، سبق إلى وضع **الملف للمريض**، أو إلى تأسيس تقليدٍ طبي اسمه اليوم: «**الطبّ العائلي**»، والبطاقة الطبية، والحالة العيادية (الإكلينيكية) المعروفة في الطب العقلي المعاصر.

٨ ـ هل وصلت المدينة في الاسلام إلى إقامة المؤسسة الخاصة بعلاج المجانين:

ربما يكون التسرّع بإثبات ذلك وقوعاً في مزالق المنهجية الاسقاطية واللاتاريخية؛ كما قد يكون ذلك مبالغة، وحماساً قليل النفع والمردودية، وتكيّفاً لفظياً ناقصاً مع واقعنا المنجرح. لكن الثابت أننا نلقى المؤسسة التي تحمل اسم تيمارستان (المكان المخصَّص للمريض العقلي [الذِّهاني] أو النفسي [العُصابي] = مستشفى الأمراض العقلية والنفسية). إن لم تكن تلك المؤسسة شديدة البروز؛ فإن البارز جيداً هو الغرفة المخصصة للمجانين في البيمارستانات. والأهمّ؟ لعل الأهم هو المعاملة الرقيقة، التي اتسمت بها المدينة عندنا، للمجنون (الفُصامي، وغيره). لا مجال هنا للتوصيف، ولا لمشاعر خفيفة توضع في خانة **الافتخاري الواهم والرؤية النرجسية أو النُّفاجية**... يكفي فقط، للمقارنة التي تفسِّر ما كان عندنا **حيال المجنون**، استحضار ظاهرة **سفينة المجانين** (Narrenschiff) في أوروبا. لقد كانت المدينة عندنا **رحومة بالطفل والعجائز، والزّمنى** (المصابين بمرض مُزمن). وهذا موضوع معروف؛ لكن ألا نعتبر ذلك **معياراً حضارياً؟ ففي تلك الظاهرة تجسيدٌ لقيم تحترم الانسان، وكرامته، وكينونته، والبعد المتعالي في شخصيته.**

القسم الرابع

أشمولة

١ ـ ضعف اليوم دور المسجد في الصحة النفسية داخل مدينتا المعاصرة. وتخلخلت القيم، وجرحت حضارةُ التكنولوجيا المتطوِّرة (ومواكباتها الفكرية

الاجتماعية) نرجسيتنا، واعتبارنا الذاتي. إن **الآلية** جعلت الانسان عنصراً مهملاً، متاعاً، شيئاً، مجهولاً بلا اسم أو شخصية. ومن السويّ هنا أن نرى في المتغيرات الاقتصادية ما يؤدي إلى ضرورة إعادة النظر بطرائقنا القديمة في الصحة النفسية، والطب العقلي، والرؤية للوجود والعقل والقيمة.

تعقُّد البنى، والسينما، والثورة الإعلامية، والعنف، و. . . ، و. . . ، كلها عوامل **تهدم صحة المواطن النفسية** وتقذف به إلى القلق، والانجراح، والانقهار، ونقص التكيّف أو سوئه.

٢ ـ انتقينا أعلاه؛ فقدّمنا جزءاً من ظاهرة الصحة النفسية والعلاجنفس في المدينة الاسلامية التي قد يجوز أن نطلق عليها صفة **المدينة الحانية** (حيال المجنون) **والأم الحامية**. الجزء الآخر من الظاهرة، وهو لاصقٌ أو الجانب الثاني المتكامل، مظلم إن من حيث طرائق المداواة النفسية (الخَرَز، السحر، صيبة العين، طاسة الرُّعبة، الأحجبة. . .) أم من حيث انخفاض مستوى العيش، والظلم، والتحكم. هذا الجانب المنجرح، في الانسان والمدينة، يفرض علينا أن نضعه أمام نور الوعي والعقل تماماً كالحال فيما خص القطاع اللاواعي المتحكم في المدينة، وفي الشخصية، أي حيث **اللاوعي الثقافي** يقود الجماعة والفرد، المجتمع والسلوكات أو التعاملية. . . هنا تُستدعى **الطموحات الميثومانية** التي تقود فكر نفرٍ يتعالمون لتكديس وصايا أو «مبادىء» تُسمى **علم النفس الاسلامي**، أو العلاج **الاسلامي** للأمراض العقلية والنفسية. . . في ذلك المجال يسقط الفكر، ويتبخّس المنهج التاريخي. فمن الصعب أن أقفز من «افتخار» بأنه لم يكن عندنا الـ «**نارّانشيف /Narrenschiff**» إلى إفتخارٍ آخر يقول إننا سبقنا الغرب في الطب العقلي، والعلاجنفس، وما إلى ذلك. القضية أغنى من هذه اللاتاريخية، والاسقاط، والتلفيقانية (را: التفسيرات المتعالمة لبعض الآيات القرآنية)، وتضخيم جزء هنا وآخر هناك.

٣ ـ يعادي علم المُدن **القراءة النرجسية** للمدينة، والرؤية المسطِّحة التي تعجز عن التقاط التطور والاختلافات. إنّ م.ع. عثمان، للمثال، أبرز لنا في «**المدينة الاسلامية**» عيِّنة من تلك القراءة المبتهِجة، الانتفاخية: فقد جاء عمله

تحبيذياً، غير نقدي؛ مغفلاً المُظلم والظالم والقواهر في المدينة، إن اجتماعياً أم سياسياً أم اقتصادياً[١١]. فكل نظَرهِ مقيد بالجميل، والايجابي، والمتشابه؛ وكأنّ المُدن التي عرفها تاريخنا الطويل واحدة وحيدة، جنّة وارفة للفقير والغني، محقِّقةً لمطالب «**أهل العدل**»، و«**أهل التسوية**».

ليست الرؤية الميثومانية (الإختلاقية) وحدها خصماً للنظر المُمنهَج؛ فهناك أيضاً **أدروجات البنيويين العرب**، أو «أتباع» فوكو، أو أهل أُدروجة **القطع واللااستمرار**: يريدون أن يقطعوا مع المجلوبات والمكتسبات التي راكمها الفكر العربي الاسلامي في تجاربه داخل «**قطاع المُدُن**» في حضارة الإنسان.

٤ ـ لعلّ الموقف السليم يقوم على منهجية **النقدانية الاستيعابية** حيث تُدرس الظاهرة في كلّيتها وحيويتها؛ وتنعدم الرؤية الانتقائية التي تختار ما هو «جيد»، أو «ملائم»، أو «خالد»؛ ويُغيَّب التناول الصارمُ لما هو سلبي، ومعادٍ للإنسان أو قاهر له في لقمته وحريته وإنسانيته... في النظر النقدي، الذي هو كُليّ وسياقي أو يفسِّر بالسببة المعقّدة ويعي القيمة التأثيرية للشروط والبنى الواقعية التاريخية، تُعاد تعضية المعنى والوظيفة للمُدن في الاسلام؛ وذلك ليس في منظورٍ آحادي هو إما قطيعة وإما استمرار، بل تبعاً للمفهوم النسبي للقانون، والعلم، والسببية. لذا يكون علم المُدن محكوماً بالنظرية النسبية في العلوم؛ إن النسبانية هي المتحكِّمة وليست الصورةُ التي سادت في المنطق الصوري والماهويات. لكنّ القضية تبقى أعقد، وأغنى، من أن تنحصر أو تنقصر في أحروجة، ورؤية آحاديةٍ أو جاهزةٍ ناجزة.

٥ ـ كانت المدينة في الاسلام، إن استعملنا تعميمات قليلة، أكثر توجُّهاً إلى **الداخل، والذات، والرِّضى**؛ وحاربت طويلاً التوجهات الاستقلالية لرغبة الانسان في التحكم برئيسه ومصيره. وفي المجال الرمزي الاعتباري، نمّت

---

(١١) را: محمد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٨٨؛ أحمد أبو زيد وأحمد فكري وعبد الحميد...، «المدينة الاسلامية»، في: **مجلة عالم الفكر**، العدد ١، مج ١١ (١٩٨٠).

الشخصية ذات الغنى في بُعدها المتعالي: إنّ **الصحة النفسية** التي طورتها مدينتنا التاريخية تتمركز حول الثقة بالمعونة تأتي من خارج الشخصية. وبذلك فإن **الشخصية استعانية**: تؤمن بالمُعين، وتحتمي؛ وتجد الاطمئنان في اللجوء إلى ملاذ يعطي المنعة للأنا في تفاعلها مع قواهر الحقل والانجراحات النفسية الاجتماعية. لا مجال للاستفاضة في هذه الإلماحة؛ لكنّ ذلك النمط من الوعي والسلوك، من الشخصية، يتوازن ويجد التوكيد الذاتي في الانكفاء الذي يتجسد في البيت الاسلامي المسوَّر، وفي الفنّ الاسلامي، وفي **انعدام الشُّرفة المنزلية**، وفي **تقييدٍ للحداجة**.

٦ ـ ليست **الشخصية الاستعانية** أدنى، ولا هي أرفع، من الشخصية التي تستند إلى الذات وحدها، وإلى اليقين العلمي، والفردانية المفرطة، والعلائقية التبادلية الميكانيكية. **ففي الطب النفسي**، على سبيل الشاهد، يلجأ **الصابر** (الزبون، «المريض») إلى ما هو بعد الشخصية الفردية: ينتظر العون أو يستمده من الله؛ أو من الأهل، والاخوة، **والعلائقية الرحومة**. ليس ذلك حلاً، ولا هو دواء، في الشخصية اليوم داخل الأمم الشديدة الصناعة. لكن أيّنا الأنجح؟ **هل يحققون الشفاء النفسي على نحو أسرع؟** أم هل نحن الأقدر؟ أين الحل؟ لكني لا أقول أين الصواب؟ لا نسأل هنا عن الحقيقة. كأنّنا لا نعرف، حتى اليوم.

٧ ـ يسير الفكر العربي الراهن باتجاه تحيين **«المدينة الفاضلة»**، التي تصورها الفلاسفة أو المُخيَّل الشعبي والاصطورة والكرامة، في المدينة التي تتطور، في هذه الحقبة، تبعاً للمزيد من الارادة والوعي، ووفق المستقبليات العربية. فالمدينة، في الحاضر أي في المستقبل، هي الظروف المادية والبنى، والشروط والإمكانات، لانغراس العلم، والعقلية المُمَنهجة والتكنولوجيا المتطورة النابعة من الداخل. هذه المدينة هي وحدها **الحقل المادي الاجتماعي**، أو الفضاء الضروري والحتمي، الذي يوفِّر لتعميق **العلائقية الاتزانية**، والديمقراطية. فالمُدن أرض الفكر؛ وهي التراب الذي تزدهر فيه ثم تيْنع ليس فقط السلوكات الدقيقة بل وأيضاً، وعلى نحوٍ بارز، أفكار المساواة، وحرية المدناوي (ابن

المدينة، نفسها)، والتشارك في الفعل السياسي، وتعزيز إنسانية الانسان، والتحكّم ببعده العالمي وبتبعيته داخل النظام العالمي للفكر، والسوق، والاتصال، والموقع والنمط.

٨ ـ يهتم علم المدن، كما قال رأينا بالماح، باستكشاف **المخيال الاجتماعي** للمدينة العربية الاسلامية، القديمة والراهنة /المستقبلية. فالاهتمام بالرمزي والظلي والمعيوش، بالاعتباري والنفسي والاشاري، بالتصورات والهوامات، اهتمام بجانب آخر أساسي في الإنسان، والمدينة، والفعل المديني أو السياسي. إنّ ما هو يرتد الى **اللاوعي الثقافي** للفعل المديني، وللسلطة والبنى والنُّظُم، شديد التعبير واسع المردودية في طريقنا لاعادة التعضية وللتكييفانية المستقبلية.

٩ ـ تبقى إشارة أخيرة إلى أن ذلك العلم، في مجالنا الآن، يعمل في ميدان **تفسير** تجاربنا القديمة مع المدينة **والروح المدينية** [المدائنية]، داخل حضارة البشري، تبعاً لقوانين أو لِسُنَنٍ طبيعية؛ كما يعمل، في الآن عينه، في ميدان **التغيير** في المدينة الحاضرة/ المستقبلية بحيث تترسخ الرؤية والمنهجية اللتان تتحكمان في مدينة الحداثة وما بعد الحداثة، مدينة المعاصَرة وما بعد الثورة الصناعية. تلك هي مدينة المؤسسات وليس الرؤساء؛ مدينة النصوص والنُظم المعقدة المنفتحة على أَنْسَنَة الانسان والثقة بدوره الأول في الفعل السياسي الذي هو أساسي في صحتنا النفسية والفكرية.